المقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى ذريته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد راعني منذ فترة طويلة شيوعُ الفهم الخطأ للعلوم ولكلام أهل العلم فيها، وانتشاره بين كثير من المشتغلين بالعلم، حتى تجاوز الأمرُ سوءَ الفهم: إلى أن أصبحتُ أقرأ تأصيلاتٍ له، وإلى أن صرتُ أسمع تقريراتٍ تستدلُّ لأسلوب الفهم الغلط! فلم يقتصر الأمر على سوء الفهم غير المقصود، بل صار يُحامى عنه، بتأصيل وتقعيد له!!

وقد هال العلماءَ قديمًا كثرةُ الأخطاء في فهم كلام أهل العلم، حتى قال ابنُ قَيِّم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما أكثر ما ينقل الناسُ المذاهبَ الباطلةَ عن العلماء بالأفهام القاصرة! ولو

ذهبنا نذكر ذلك، لطال جدًا. وإن ساعد الله، أَفْرَدْنا له كتابًا»[1].

فهذا المشروع العلمي الذي رجا ابنُ القيم أن يقوم به، يدل على أن سُوءَ فَهْم كلام أهل العلم قد بلغ من الكثرة والفُحش إلى درجة أن ابن القيم قد تَأمّلَ أن يُفرده بكتابٍ كاملٍ يَخصُّه به! فإن كان هذا قد وقع قديمًا، وما مضى من عمر الأمة قبلُ كان هو أزهى عصورها علمًا وفقهًا وخدمةً لعلوم الإسلام، وفيها القرونُ المُفضَّلة، واحتوى على أئمةِ المذاهب وأربابِ الفنون ومؤسسي العلوم؛ فماذا سنقول اليوم بعد مُضِيِّ سبعةِ قرونٍ تَلَتْ زمنَ ابنِ القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ»؟! سبعةِ قرونٍ: قَلَّ فيها العلمُ، وشاع الجهلُ، حتى أظلمت منها أَعْصُرٌ وقرونٌ بالتقليد الأعمى وبالجمود، وباجترار الجهود السابقة، مع ضعف فقهٍ وسطحيةِ فَهم، فأفسدت جهودَ السابقين أضعافَ ما كان قد وقع إلى زمن ابنِ القيّم، وزادت ضِغْثًا على إبّالة، وأمعنت في قَطْعِ الطريق دون صافي جهود أئمةِ الاجتهادِ ودون الفقهِ الحقيقي في علوم الإسلام الذي خلّفه لنا علماءُ الأمةِ الحقيقيون، من خلال السطو على جهودهم بدعوى التمتين والاختصار تارة، والتعليق والتَّحْشِيةِ أخرى، والنَّظْم في ثالثة الأثافي، ثم إنهم عادوا إلى شرح منظومهم ذاك، ثم إلى تمتين شرحهم، ثم إلى نظمه من جديد.. وهكذا.. في تَكْرارٍ مُبْكٍ مُضحِكٍ! ثم تلا تلك

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٣١).

العصور المظلمة عصرُنا الحديث: الذي تعالت فيه صيحات التجديد، ممن لا يعرف القديمَ.. حتى يُـجدّده! وهاجت فيه دعوات التحرير، ممن لم يتحرّر من جهله واغتراره، أو ممن استعبدته قيمُ الحضارة الغربية وضغوطُ العولمة! فعظُمَ الاغترارُ والـتَّسَوُّرُ على العلوم بغير حق، واخترعوا لذلك شهاداتِ زورٍ، تُوهم أصحابَها أنهم صاروا أهلا لمنازعة العلماء، وهم ما صاروا بعدُ أهلا لفهم كلامهم!! وخَفَتَ خِلالَ ذلك صوتُ التجديد الحقيقي، وضاعت دعوات التحرير الصادقة، وتقاذفها المتطرّفون: فأدعياء التجديد (من الفوضويين المراهقين فكريًّا) يُلحقونها بالجمود والتقليد والإمعيّة، وحُرّاسُ الجمود والتقليد الأعمى يُلحقونها بالفوضى والتفلّت والهزيمة النفسية!!

وكان من أهم ما يزيد هذا الواقع سوءًا: ما ذكره ابن القيّم منذ سبعة قرون، ألا وهو سوء فهم كلام أهل العلم، وما يتبعه من تكثير أوجه الاختلاف، ومن غَمْرِ نُقطة العلم ببحر الجهل وأمواجِه المتلاطمة، على حدِّ قول القائل: «العلمُ نُقطة: كَـثَّـرَها الجاهلون»، مما ابتلعَ العلومَ، وأغرق الجهود، وأظلمَ العقولَ في ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أراد إخراج أفكاره فيها لم يكد يراها!

كل هذا مما أوجب عليّ التنبيه على خطر فهم كلام أهل العلم، وعلى محاولة تصحيح المسار ببعض من التوجيهات العامة والضوابط السهلة، لكي تنضبط عملية التفهُّم لكلام أهل

العلم بضوابط تمنع من تكثير شذوذات الأفهام (فوق كثرتها)، وتحمي من شَطَطِ الخطأ في فهمها (فوق شططها)!

وكنتُ قديمًا قد قيّدتُ بعضَ الضوابط الكبرى التي تُعينُ على فَهْمِ كلام أهل العلم، وذلك في كتابي (المرسل الخفي)، ولخّصتُها في كشّافِ فوائده المنثورة[1]، فاستفادها كثيرٌ من طلبة العلم (بحمد الله تعالى)، وعمّت ثمراتُها الطيّباتُ في عدد من البحوث والأطروحات العلميّة[2]. ولكنّ وُجودَها هناك مُفرَّقةً، مع وُرُودها في سياق مناقشاتٍ علميّةٍ يُخالفني في نتائجها بعضُ الناس = قد أنْقَصَ من قَدْر الاستفادة منها، حتى بلغ الأمرُ ببعض الناس أن يعترضَ على تلك الضوابط (أو بعضها)؛ لأنّها كانت سببًا إلى تقرير مسألةٍ علميّةٍ بخلاف ما كان متقرّرًا في أذهانهم.

ولذلك فقد رأيت أن أكتب في بيان بعض الضوابط المهمة التي تعين على فهم كلام العلماء، وتقي من كثير من سوء الفهم الذي أراه متفشِّيًا بين كثير من المنتسبين للعلم.

فأسأل الله التوفيق والإعانة.

---

(١) المرسل الخفي (٤/١٩٥٦).

(٢) ثم طبعتها ضمن مجموعة مقالات بعنوان: (إضاءات بحثية)، ثم أعدت فيها النظر في الصياغة والترتيب وزيادة الاستدلال في هذا الإخراج الجديد.